غُـربة القـريب (*)

كان أستاذنا العظيم، الرجل القيمة، المرحـوم الأسـتاذ / مـصطفى مرعى المحامى القاضى الفقيه الوزير، الـذى تحـل ذكـرى وفاتـه هـذا الشهر، كان شديد الإعجاب، وأنا معجـب وإيـاه، بـأثيرة الفيلـسوف الأديب أبى حيان التوحيدى : " أغرب الغرباء، من صار غريبـا فـى وطنه . وأبعد البعداء، مـن كـان بعيـدا فـى محـل قربـه . لأن غايـة المطلوب، أن يسلو عن الموجود وأن يُغمض عن المشهود وأن يُقـصى عن المعهود . يا هذا الغريب : الذى إذا ذكر الحق هُجر، وإذا دعا إليه زُجر " !

الغربة فى الحياة، ليست الغربة المادية وكفى .. ليست فقط غربـة البعيـد ـ ماديـا ـ عـن بلـده أو مرتـع صبـاه، أو أسـرته وأحبابـه .. وليست فقط فـى هجرتـه ولا انطلاقـه بحثاً عـن الـرزق فى أسفاره أو سياحاته .. الغربة الأمـض، الموجعـة المؤلمـة حقيقـة، هـى الغربـة النفسية .. هى غربة القريب .. أن يحس الآدمى بالعربـة فـى أرضـه وبلده وبين أترابه وذويـه وبنـى جلدتـه وأهـل عملـه أو صـنعته أو حرفته أو مهنته .. هـذا الغريب هـو الغريب الحقيقـى بغربـة تبـدو كالداء الوبيل لا دواء ولا شفاء لها .. حين يحس الآدمى أنـه غريـب فى ذات محيطه ـ بل أبعد البعداء ـ فى محل قربه !!

هذا الإحساس بالغربة فى محيـط الـشاعر بهـا، إحـساس متوالـد متنام لا يولد فى لحظة، وإنمـا يتـشكل مـن ركامـات تتـوالى علـى

---

* الجمهورية ٢٠٠٢/١١/١٨

أحاسيس وفكر وعقل ومشاعر الآدمى يتمخض بها فى داخله إحساس يتزايد بأنه لم يعد يحيا فى دنياه، وأن ما حوله قد انقطعت أسبابه به .. قد يكون هذا لضمور سعيه عن ملاحقة ما حوله، وقد يكون - وهو ما يعنينى هنا، لأنه آفة هذا الزمان - لتنامى ملكاته وأفكاره ورؤاه ومنظومة مناقبه تناميا لا يلاحقه أو لا يقبله خفوت شعلة المبادئ والقيم والوقار والأمانة والإخلاص عند الغالب الأعم من الناس .. يحدث ذلك أكثر وأشد، حين تكون هذه المنظومة الرفيعة - منظومة معرفة، تورى بنفسها بغير عرض ولا استعراض، فتحرك أشجانا وغيرة وحسدا وأحقادا، أو إذا كانت تتحدث من المواقف ما تضيق به صدور، وتعتل منه قلوب، وتتضرر منه مصالح وأهواء لم تعد قادرة على أن تسمع أى نغمة هى فى نظرها نشاز مادامت لا تجرى ولا تصدر عما يتوافق مع ما تريد وتبغى !

هناك فترات ازدهار فى أعمار الشعوب والأمم، تتجلى فيها عبقريات وعقول، قد تعقبها أحيانا فترات خمول تجبو إن لم تنطفئ فيها معالم وأسباب الاستنارة والامتياز والتفوق .. هذه البيئة الخاملة الزاحفة سرعان ما تحاصر العبقريات والعقول النابهة المتقدمة والملكات الخاصة، فتتناقص من حولها شيئا فشيئا الدوائر التى تستطيع أن تتنفس فيها وأن تتحاور وأن تتفاعل معها قبولا أو رفضا، تسليما أو اعتراضا، هذا التفاعل الحى الذى يشكل العدسة الحقيقية للآدمى العاقل المفكر النابه الوقور الصادق المخلص .. مثل هذا تكون بلواه كبيرة، ومصيبته هائلة .. ليست ككل المصائب التى يقال عنها - بصدق - إنها تولد كبيرة ثم تصغر مرور الوقت والانطمار والنسيان .. وإنما هى مصيبة تولد صغيرة .. وقد تكون فى البداية غير مرئية، ثم تكبر وتكبر ككرة الثلج المتدحرجة على سفح الجبل . ذلك أن " الرتق " يزيد بمضى الزمن إلى " شرخ " يتحول

شيئا فشيئا إلى " هوة " واسعة بين الأقلية النابهة الوقورة المفكرة الصادقة المخلصة، وبين الأكثرية التى يغلب عليها الخمول والتفاهة والسطحية والبهلوانية والمداهنة والرياء والنفاق وقلة الإخلاص والجدية .. هنالك يتوقف الحوار والتواصل بين هؤلاء وأولاء .. تتوقف الأقلية النابهة أو تقلع أو تكاد عن التحاور ويزداد شيئا فشيئا إحساسها بالاختناق وعدم القدرة على التنفس وسط الصخب التافه والضجيج العالى، فتؤثر الإعراض عن المشاركة وتلوذ بالصمت وتلتحف بغربتها التى قلنا إنها تولد صغيرة بل غير مرئية، ثم تتخلق وتتشكل وتكبر وتتحول يوما بعد يوم إلى غول مارد يحفر فى الوجدان الإحساس الهائل بالغربة والانفصال انفصالا يكاد يكون تاما عن المحيط !!

هذا الإحساس بالغربة، لايمضى مع الآدمى - حين يعتريه، بغير آثار نحر وتدمير .. الآدمى بطبعه وفطرته كائن اجتماعى، لا يعيش منفصلا عن المجتمع، ولا يقبل الانفصال عنه - ماديا أو روحيا أو نفسيا - إلا مضطرا .. لأن هذا الانفصال مخالف لخلقته وفطرته وطبيعته - وهو لذلك لابد أن يلوذ إلى ما يسمى فى علم النفس بالحيل والآليات الدفاعية .. قد يرى لنفسه " التعالى " ليصبر أو ليتصبر على التفاهات المحيطة، فيتعالى منعزلاً عن الناس بتعاليه ! .. وقد ينكفىء على ذاته، ويتمحور فيها، ويكتفى بما تديره ذاته من حوارات " جوانية " مع نفسها، تغنيه عن دنيا الناس وسطحيتهم، فينقطع أو يكاد عن تيار المساهمة الفاعل المؤثر فى الحياة .. وقد تصيبه المرارة ويتغلب عليه اليأس والقنوط، فيسقط منزويا فى هوة الإحباط فينقطع عطاؤه كلية .. ويموت مهيضا كسيرا آسفا حزينا على الحياة التى تمضى على غير قانون وتنكشف فجأة عن " ملهاة " أو " مأساة " لا قانون لها ولا ضابط ! ..

وقد تتحول المرارة إلى قوة " اعتراض " و" مقاومة " فتخرج نفس الآدمى - باللا وعى - عن الحكمة ومنابعها التى تغذت منها وعليها طوال ما انصرم من عمرها، وتتحول - باللاوعى أيضا - إلى " صخب " " مشوش " و" اعتراض " يصيب حينا ويخطىء أحيانا لأن الذات قد انصرفت فيه عن الموضوع إلى رغبة تملكتها للفت الأنظار إليها وتذكير الناس - الذين لم يقدروها ! - بها وبإمكانياتها ونباهتها وتفوقها وامتيازها وقدرتها على أن تصل إلى ما لا يصل إليه سواها، فتأخذها المبالغة والإمعان فى الالتفات للذات فتخرج دون أن تدرى - أو لعلها تدرى - عما نالت به فى السالف هذا التفوق والنباهة والامتياز !

تخسر المجتمعات خسرانا كبيراً هائلا، بانفصال هذه " الصفوة " - متعدد الصور ! - عن تيار الحياة، وعن المساهمة المعطاءة الفاعلة فيه .. هذه " الصفوة " هى العقل الحقيقى لأى أمة .. هى القاطرة التى تشد المجتمعات وتفرز لها نسيجها وتحدد لطريقها معالم الاستنارة والرؤية الموضوعية السديدة الصائبة معجونة بالحكمة والنظر المتجرد البعيد عن المصالح والمآرب والأهواء .. هى التى ترسم وتنير لها خطاها وتسهم مساهمة فاعلة فى تكوين العقل الجمعى والرؤية الشاملة المحيطة التى لاغناء لمسيرة المجتمعات عنها .

ما أريد الالتفات إليه، يجاور ظاهرة ما يسمى بالغالبية الصامتة .. صحيح أن الأغلبية الصامتة هى ترجمة فى ناحية من نواحيها عن عدم توافق الصامتين مع معطيات مسرح الحياة السياسية، وعزوفهم من ثم - لأسباب قد يكثر ويطول الحديث فيها ! - عن المشاركة والمساهمة فيها، إلا أن ذلك قد لا يكون بالضرورة - ترجمة " عن الإحساس بالغربة " التى أعنيها .. الإحساس بالعربة إحساس أشمل لاينحصر فى المسرح السياسى، وإنما هو

إحساس به يفارق المغتربة روحه ونفسه ويعطى ظهره لكافة المسارح ولتيار الحياة بأكملها وعلى اتساع واختلاف وتباين مناحيها .. يفارق به المسرح الثقافى والاقتصادى والاجتماعى والشعبى والنقابى .. يفارق به دائرة من حوله وربما من أترابه وأصدقائه، لأنه " حالة " تكمن فى إحساس واعتقاد المغتربة روحه ونفسه بأن لغته لم تعد لغة المحيط، وأن فكره وسبحاته لم تعد أفكار الناس ولا مشاغل الناس المنصرفين إلى التفاهة والسطحية، وأن مناقبه باتت غريبة فى دنيا الناس، لم يعودوا قادرين على امتصاصها ولا على تقبلها بل ولا على السكوت عنها .. أو كما قال التوحيدى .. لأن غاية المطلوب - مع الناس، كل الناس ! - أن يسلو عن الموجود وأن يغمض عن المشهود .. ولذلك، فإنه إذا ذكر الحق هُجر - وإذا دعا إليه زُجر !!

كان من حظى - أو نصيبى - فى رحلة الحياة، أن اقتربت من قمم وشوامخ داهمها الإحساس بالغربة، وظل يتراود ويتزايد لديهم - ليس فقط إلى حد المفارقة والانفصال عن تيار الحياة الدافق ومسارحه المتعددة المختلفة، وإنما أيضا فى دائرة العلاقات الشخصية والحوارات الحميمة التى تدور عادة بين الأصدقاء والأتراب وأبناء وزملاء العمل أو المهنة أو المدارس الفكرية أو المذهبية أو الاقتصادية .. المغترب يغترب عن هؤلاء جميعا، وربما اغترب عن أعز أصدقائه بل وعن أسرته إلا ما يتعلق بشئون معاشه وضرورات حياته .. الغربة إحساس عميق هائل يزوى بالآدمى بعيدا بعيدا ينظر إلى ما يراه فيستغربه ولا يتقبله ويكاد لا يعرفه .. غالبا ما يقترن هذا الإحساس العميق بنزوع إلى الماضى .. النزوع إلى الماضى هو صورة من صور الآليات الدفاعية، يصدر تعبيرا عن رفض الحاضر أو الضيق به وعدم التواؤم معه، ويجد سلواه فى استحضار صورة أو

صور الماضى الجميل التى تمثل للمغترب المهاجر الجنة التى إليها يهرب حين تنقطع الأسباب بينه وبين الحاضر !!!

النزوع إلى الماضى أثره كأثر " المنفس " الذى يفرغ الضغط الزائد من أوانى وخزانات البخار ويقى من الانفجار، وهو أقل الآثار السلبية لنواتج الشعور بالغربة، الأخطر منه : المرارة أو الانكفاء حول الذات أو التمحور فيها أو السقوط فى وهدة اليأس والقنوط والمرارة والإحباط : عرفت عطيما شامخا كان من حطى الاقتراب منه والتلقى عنه، حتى صرت من صنعة يديه، هو أبى الروحى وشيخى وأستاذى محمد عبد الله محمد . رأيت هذا العملاق الشامخ يتزايد إحساسه بالغربة مع الأيام، فقد عاش للثانية والتسعين، تضيق من حوله الدوائر التى اعتاد أن يتنفس فيها ويتواصل معها، وهذا الإحساس بالغربة وارد وأصاب غيره كثيرين، ولكن العظمة العطيمة فى هذا العملاق الذى لايفارقنى حتى اليوم، فى صحوى وفى منامى، أنه لم يسقط فريسة لشىء من سلبيات هذا الإحساس، لا قنط ولا يئس ولا أصابه إحباط ولا انكفأ أو تمحور فى ذاته ولا انفصل عن تيار العطاء .. لآخر أيام حياته يعمل وكأنه ابن العشرين، لا يلاحق أحداً، ولا يطلب شيئا، ولكنه لا يبخل على أى لاجىء إليه بما لديه من علم هائل وحكمة عميقة .. وقفت كثيرا أمام هذا العملاق متأملا حائرا، كيف استطاع ؟! .. أجابتنى أعماله وصورته قبل أن يجيبنى لسانه .. إنه وحد ضالته فى التسليم والرضى، فى هذا الإيمان العميق الصامت الوقور الذى ملأه رضىً وتسليما .. وفهما، هذا الفهم الذى علم منه، وعلمت عنه، أنه إذا دان للآدمى - إستغنى، .. فمن فهم استغنى، ومن استغنى تحرر !!